إيبارشية المنيا وأبو قرقاص
للأقباط الأرثوذكس

المزمور الخمسون
مزمور التوبة

إعداد :
مكاريوس
الأسقف العام

اسم الكتاب: المزمور الخمسون – مزمور التوبة

المؤلف: مكاريوس، الأسقف العام.

الناشر: إيبارشية المنيا وأبوقرقاص للأقباط الأرثوذكس.

الطبعة: الأولى – نوفمبر ٢٠١٥

المطبعة: مطابع النوبار – العبور.

الغلاف: القس بولا وليم – القس ميخائيل عطية

العناوين: مجدي لوندي

رقـــم الإيـــداع : ٢٢٧٠٨ / ٢٠١٥

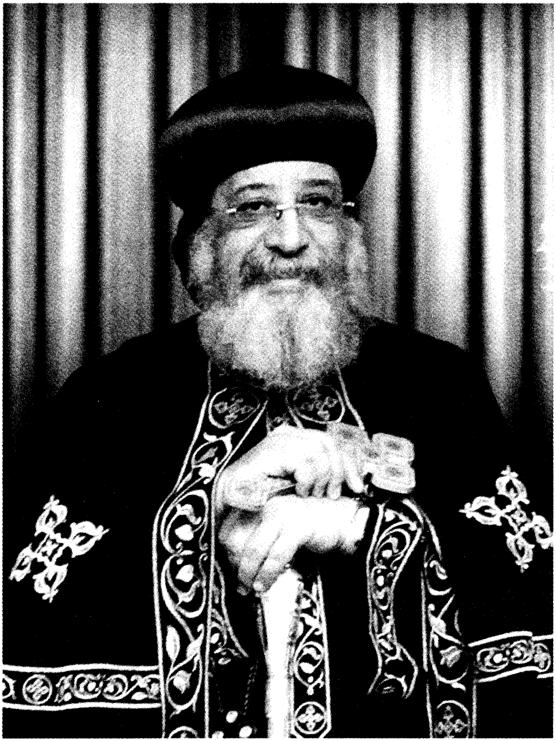

قداسة البابا تواضروس الثانى

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية فى مصر وسائر بلاد المهجر

نيافة الأنبا أرسانيوس

مطران المنيا وأبو قرقاص

المزمور الخمسون
مزمور التوبة

هذا المزمور هو واحد من سبعة مزامير يُطلق عليها مزامير التوبة (٦، ٣٢، ٣٨، ٥١ (٥٠)، ١٠٢، ١٣٠، ١٤٣)، وهو في الحقيقة منهج للتوبة، يمكن للتائب أن يصليه بعمق فيقدم توبة ويفرح بثمارها وهو يصليه، ويشعر بعذوبة التوبة «يبتهج قلبي بخلاصك»، ويغمره شعور بالراحة والفرح القلبي. لقد صلّاه داود النبي وهو في حالة نفسية سيئة بسبب شعوره بالجرم الذي صنعه، ومن ثَمّ فإن المزمور يناسب الشخص الذي يشعر بأنه في حالة هزيمة، يبدأ بطلب الرحمة وينتهي بطلب المسرّة للكنيسة كلها وتحصينها.

هذا المزمور تقوله الكنيسة في بداية جميع الليتورجيات، بعد صلاة الشكر، سواءً في ساعات الأجبية، أو في الأسرار واللقان وباكر خميس العهد، لتبدأ الصلاة بالشكر مبدئيًا ثم طلب الرحمة، والاعتراف بعدم الاستحقاق. وربما كان يُقال قديمًا بعد كل صلاة شكر، لتقوم الصلوات على ركيزتين هما: الشكر والتوبة.. ويبدأ

المزمور هنا بطلب الرحمة والاعتراف بالخطية، وينتهي بالكرازة بالله وتقديم التسبيح في صهيون.

العجيب أن داود لم يسقط في فترة مطاردة شاول والجوع والعطش، أو أيام الرعي في الجبال، وإنما وهو مستريح على عرشه! وبعدما أخطأ أرسل الله له ناثان النبي لينبّهه إلى ضرورة التوبة.

فَأَرْسَلَ الرَّبُّ نَاثَانَ إِلَى دَاوُدَ. فَجَاءَ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: «كَانَ رَجُلاَنِ فِي مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ، وَاحِدٌ مِنْهُمَا غَنِيٌّ وَالآخَرُ فَقِيرٌ. وَكَانَ لِلْغَنِيِّ غَنَمٌ وَبَقَرٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا. وَأَمَّا الْفَقِيرُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ إِلاَّ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ صَغِيرَةٌ قَدِ اقْتَنَاهَا وَرَبَّاهَا وَكَبِرَتْ مَعَهُ وَمَعَ بَنِيهِ جَمِيعًا. تَأْكُلُ مِنْ لُقْمَتِهِ وَتَشْرَبُ مِنْ كَأْسِهِ وَتَنَامُ فِي حِضْنِهِ، وَكَانَتْ لَهُ كَابْنَةٍ. فَجَاءَ ضَيْفٌ إِلَى الرَّجُلِ الْغَنِيِّ، فَعَفَا أَنْ يَأْخُذَ مِنْ غَنَمِهِ وَمِنْ بَقَرِهِ لِيُهَيِّئَ لِلضَّيْفِ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ، فَأَخَذَ نَعْجَةَ الرَّجُلِ الْفَقِيرِ وَهَيَّأَ لِلرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ». فَحَمِيَ غَضَبُ دَاوُدَ عَلَى الرَّجُلِ جِدًّا، وَقَالَ لِنَاثَانَ: «حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ، إِنَّهُ يُقْتَلُ الرَّجُلُ الْفَاعِلُ ذلِكَ، وَيَرُدُّ

النَّعْجَةَ أَرْبَعَةَ أَضْعَافٍ لأَنَّهُ فَعَلَ هذَا الأَمْرَ وَلأَنَّهُ لَمْ يُشْفِقْ».

فَقَالَ نَاثَانُ لِدَاوُدَ: «أَنْتَ هُوَ الرَّجُلُ! هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: أَنَا مَسَحْتُكَ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلَ وَأَنْقَذْتُكَ مِنْ يَدِ شَاوُلَ، وَأَعْطَيْتُكَ بَيْتَ سَيِّدِكَ وَنِسَاءَ سَيِّدِكَ فِي حِضْنِكَ، وَأَعْطَيْتُكَ بَيْتَ إِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا. وَإِنْ كَانَ ذلِكَ قَلِيلًا، كُنْتُ أَزِيدُ لَكَ كَذَا وَكَذَا. لِمَاذَا احْتَقَرْتَ كَلاَمَ الرَّبِّ لِتَعْمَلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيْهِ؟ قَدْ قَتَلْتَ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ بِالسَّيْفِ، وَأَخَذْتَ امْرَأَتَهُ لَكَ امْرَأَةً، وَإِيَّاهُ قَتَلْتَ بِسَيْفِ بَنِي عَمُّونَ. وَالآنَ لاَ يُفَارِقُ السَّيْفُ بَيْتَكَ إِلَى الأَبَدِ، لأَنَّكَ احْتَقَرْتَنِي وَأَخَذْتَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ لِتَكُونَ لَكَ امْرَأَةً. هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هأَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ، فَيَضْطَجعُ مَعَ نِسَائِكَ فِي عَيْنِ هذِهِ الشَّمْسِ. لأَنَّكَ أَنْتَ فَعَلْتَ بِالسِّرِّ وَأَنَا أَفْعَلُ هذَا الأَمْرَ قُدَّامَ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ وَقُدَّامَ الشَّمْسِ». فَقَالَ دَاوُدُ لِنَاثَانَ: «قَدْ أَخْطَأْتُ إِلَى الرَّبِّ». فَقَالَ نَاثَانُ لِدَاوُدَ: «الرَّبُّ أَيْضًا

قَدْ نَقَلَ عَنْكَ خَطِيّتكَ. لا تَمُوتُ. غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ بِهذَا الأَمْرِ أَعْدَاءَ الرَّبِّ يَشْمَتُونَ، فَالابْنُ الْمَوْلُودُ لَكَ يَمُوتُ». وَذَهَبَ نَاثَانُ إِلَى بَيْتِهِ.

(صموئيل الثاني ١٢:١-١٥)

المزمور

ارحمني يالله كعظيم رحمتك ومثل كثرة رأفتك:

يبدأ المرنم هنا بطلب الرحمة على أساس غنى الله في المراحم، فيقول: "ارحمني يا الله كما عهدنا فيك الرحمة، ارحمني بحسب رحمتك العظيمة وليس خطاياي"، ونحن نصلي في القداس بمثل ذلك، فما أن نسمع الكاهن يعلن عن الدينونة بأن الله "سيعطي كل واحد فواحد كحسب أعماله"، حتى نصرخ مثلما يفعل المتهم في القفص متوسلًا للقاضي: "كرحمتك يا رب، وليس كخطايانا". ولكن نفس الكاهن الذي يعلن قضاء الله، هو هو ذاته كإنسان وكنائب (شفيع عنّا - برسفيتيروس) يطلب عنّا: "اصنع معنا حسب صلاحك"، أي أعطنا بمكيال تحنّنك وليس بمكيال استحقاقنا، ونقول له في الصوم الكبير: "أنا عارف أنك رؤوف

ورحوم"، ويقول يوئيل النبي: «مَزِّقوا قُلوبَكُمْ لا ثيابَكُمْ. وارجِعوا إلَى الرَّبِّ إلـهِكُمْ لأنَّهُ رَؤوفٌ رحيمٌ، بَطيءُ الغَضَبِ وكثيرُ الرَّأفَةِ ويَندَمُ علَى الشَّرِّ» (يوئيل ٢: ١٣).

تمحو إثمي، تغسلني كثيرًا من إثمي، ومن خطيئتي تطهرني

محو الشيء يختلف عن تغطيته، مثل الفرق بين الأستيكة والكوريكتور Corrector، فالأخير يغطّي بينما الأستيكة تمحو، مثل الذي يسامح وقتيًا ولكنه لا ينسى وعند الضرورة يتذكر الجميع، أمّا المحو فهو شيء آخر، يعيد السطح إلى ما كان عليه، وكأن الشخص لم يخطئ أصلًا! «أنا أنا هو الماحي ذُنوبَكَ لأجلِ نَفسي، وخطاياكَ لا أذكُرُها. ذَكِّرني فنَتَحاكَمَ مَعًا. حَدِّثْ لكَيْ تتَبَرَّرَ» (إشعياء ٤٣: ٢٥-٢٦). كذلك فإن تعبير "غسيل" هو تعبير مشجّع وفيه رجاء. و:تغسلني كثيرًا" معناها أنه كلما اتسخ الثوب يمكن إرجاعه إلى حالته الأولى، وأن الإنسان مهما كان كثير السقوط فإن الأمر قابل للشفاء. كما يشير الغسل الكثير إلى بشاعة الخطية التي تحتاج إلى طاقة حب وغفران كبير من الله. إن التوبة تحوّل الزناة إلى بتوليين أي كأنهم لم

يخطئوا، وهذا يفسّر عودة الثوب إلى حالته الأولى بالغسيل. وتعبير "كثيرًا" له معنى آخر وهو الوصول إلى أعلى درجة نقاوة: «قد مَحَوْتُ كغَيمٍ ذُنوبَكَ وكسَحابَةٍ خطاياكَ. اِرجِعْ إلَيَّ لأنّي فدَيتُكَ» (إشعياء ٤٤: ٢٢).

ملاحظة: يردّد داود النبي في المزمور ثلاث كلمات تعبّر عن حالته، هي: "الخطية" و"الإثم" و"المعصية"، والفرق بينها هو أن الخطية معناها إخطاء الهدف (بارابتوما)، أي ما كان يجب أن نعمله من الصلاح ولم نفعل. والإثم هو التعدّي على الوصية أو المخالفة أو الأعوجاج. وأمّا المعصية فهي العصيان أو التمرد على الله بأشكاله.

لأني أنا عارف بإثمي، وخطيتي أمامي في كل حين:

لم يجادل داود ناثان النبي بل أطرق برأسه إلى الأرض، لأنه "عارفٌ بإثمه"! الاعتراف دائمًا يحتاج إلى صدق مع النفس، جميلٌ أن يكون الإنسان صادقًا مع نفسه، فيقول: "أنا عارف أني خاطئ، قد يجاملني البعض ولكني فيما بيني وبين نفسي أنا عارف أني خاطئ". هذا اعتراف بالخطية، والسر في الكنيسة

يُسمَى "سر التوبة والاعتراف" إذ أن البعض يعترفون فقط ولكنهم لم يتوبوا أولًا، ولذلك فإن داود النبي عندما وقف أمام الله منسحقًا يطلب الرحمة والغفران كان يقدم نموذجًا في التوبة التي يجب علينا ممارستها قدام الله لنصطلح معه، وذلك قبل الوقوف أمام الأب الكاهن.

إن خطاياي لا أضعها أمامي لكي أيأس وأتشكّك في غفران الله، وإنما لكي أتذكر أني ضعيف وقابل للسقوط، ولئلا أثق في نفسي كثيرًا. فأمامي الميل إلى الخطية والانزلاق. يذكّرنا القول "خطيتي أمامي في كل حين" بما فعله الأنبا موسى الأسود حين حمل كيس الرمال على ظهره وتركه يتسرب منه الرمل، وكأنه يقول: "جئتُ لأدين شخصًا، بينما خطاياي أنا متجاهلها"، وبدلًا من أن تكون قدامي جعلتها خلفي. وهكذا فإن خطايا بعض الناس خلفهم لا يرونها.

نخطئ أحيانًا ولا يرانا الناس، وقد يروننا ولكنهم لا يعرفون أننا أخطأنا، والله من محبته يستر علينا ولا يفضحنا، ولكن في مقابل ذلك علينا ألّا نتجاهل خطايانا، بل لنحاسب أنفسنا، لأنه إن ذكرنا خطايانا ينساها لنا الله وإن نسيناها يذكرها لنا، وقديمًا

قال القديس مقاريوس الكبير لأحد الإخوة: "على نفسك احكم يا أخي قبل أن يحكموا عليك، لأن الحكم لله وحده"، كما أن دينونتنا لأنفسنا تعفينا من دينونة الله حتى لو أداننا الناس.

العجيب أن داود لم يُشر إلى بتشبع، ولم يلتمس العذر لنفسه متهمًا إيّاها بأنها أعثرته، وإنما حرص أن يتوب هو وتُغفَر له خطيته، هكذا الاعتراف هو شكوى النفس من النفس.

لك وحدك أخطأتُ، والشرّ قدامك صنعتُ:

لهذا قلنا إننا نعترف أولًا قدام الله في المخدع، والابن الضال قال: «أخطأتُ إلَى السماءِ وقُدّامَكَ»، والله يرى في الخفاء ما نعمله حتى وإن لم يلحظ الناس، علينا أن نتبكّت من ضمائرنا ونعتذر لله لأننا خالفنا وصيته، لقد أخطأ داود في حق بتشبع، وفي حق أوريا زوجها، وفي حق أسرته، وفي حق الشعب، وفي حق نفسه؛ ولكنه بالأحرى أخطأ في حق الله. وتعبير «الشرَّ قدامك صنعتُ» يعني أنني أخطات للأسف ولم أخجل منك، مثلما قالت بائيسة للقديس بيصاريون، الذي سألها هل هناك مكان آخر بالداخل تمارسين فيه الرذيلة؟ فأجابته: "إن كنتَ تخشى الناس فإنه لن يرانا أحدٌ هنا، وأمّا إن كنتَ تخشى الله، فاعلم أنه

يرانا في كل مكان"، ومن هنا سألها فلماذا إذًا تحيا في الرذيلة، وكيف تسقط رجالا في التهلكة؟ ثم قادها إلى التوبة.

كذلك قال يوسف الصديق «كيفَ أصنَعُ هذا الشَّرَّ العظيمَ وأُخطِئُ إلَى اللهِ؟» (تكوين ٣٩: ٩)، فلقد كان يشعر أنه لا يخطئ إلى فوطيفار أو زوجته وإنما إلى الله نفسه، ومن هنا يقول الآباء إن الخطية هي إلحاد لحظي، إذ أنه إذا تذكّر الإنسان أن الله يراه فسوف يخجل ويكفّ. يقول المرنم: «لَمْ يَجعَلوا اللهَ أمامَهُمْ» (مزمور ٥٤: ٣). أقول ذلك لأن البعض يقولون إنهم طالما لم يسيئوا إلى آخر فلا تُحسب عليهم الخطية، ولكن الإنسان مِلكٌ لله بحواسّه وأعضائه وفكره، والله ائتمنه على كل ذلك.

لكي تتبرّر في أقوالك، وتغلب إذا حوكمتُ:

أراد النبي أن يقول: إذا ناقشتُك أو احتجّيت لديك فسأظهر متهمًا مخطئًا. وفي موضع آخر يقول: «ولا تدخُلْ في المُحاكَمَةِ مع عَبدِكَ، فإنَّهُ لن يتَبَرَّرَ قُدّامَكَ حَيٌّ» (مزمور١٤٣: ٢)، أي أنها قضية خاسرة إن اعترضتُ أو حاولتُ تبرير نفسي قدامك، وقديمًا قال الرب لأيوب: «لَعَلَّكَ تُناقِضُ حُكمي، تستَذنِبُني لكَيْ تتَبَرَّرَ

أنتَ؟» (أيوب ٤٠: ٨) فلا عتاب ولا شكوى ولا تذمر، بل اعتراف بالخطية وطلب الرحمة. هكذا الذين يبرِّرون خطاياهم أمام أب الاعتراف، وأمام الناس وأمام الذات. فهم بدلًا من أن يتخلصوا من خطاياهم فإنهم يضيفون إليها خطايا أخرى. هذا يعني أيضًا أن البار الوحيد هو الله، كلنا كغنم ضللنا، ليس من يعمل الصلاح ليس ولا واحد، الجميع زاغوا وفسدوا.

عندما حكم نابليون بونابرت على أحد الجنود بالإعدام لجريمة كبيرة، تقابلت معه أم الجندي ودار بينهما الحوار التالي:

- أرجو أن تعفو عن ابني.
- ابنك مجرم يستحق القتل.
- ارحمه فهو وحيدي.
- ابنك لا يستحق الرحمة...

حينئذ قالت له: لو كان يستحق لحُسِبت عدلًا لا رحمة!

فأُعجِب من منطقها وعفى عن ابنها.

إن كان الملوك الأرضيون يعرفون كيف يعملون الرحمة ويستجيبون للتوسل فكم بالأحرى الله!

لأني هائنذا بالآثام حُبِل بي، وبالخطايا ولدتني أمي:

نحن ورثنا الخطية الجدية، وورثنا الميل الفاسد أو الطبيعة الفاسدة، فالخطية موروثة في الجنس البشري، لذلك يقول القديس بولس: «مِنْ أجلِ ذلكَ كأنَّما بإنسانٍ واحِدٍ دَخَلَتِ الخَطيَّةُ إلَى العالَمِ، وبالخَطيَّةِ الموتُ، وهكذا اجتازَ الموتُ إلَى جميعِ النّاسِ، إذ أخطأَ الجميعُ» (رومية٥: ١٢). مثلما يولد ابن في السجن لأمّ مسجونة فيرث السجن عن أمه وإن كان بريئًا. وكانت هرطقة بيلاجيوس –والتي نوقشت في مجمع أفسس– هي أننا لم نرث الخطية الجدية، وقد ردّ عليه الآباء بأنه بذلك يهدم عقيدة الفداء، إذ لا حاجة لتجسد الابن الوحيد وموته على الصليب إن لم تكن البشرية قد ورثت حكم الموت. وداود النبي هنا لا ينسب الخطية إلى آدم، وإنما ليؤكد برّ الله مقابل مخالفة الإنسان، ويبكّت نفسه أنه هو الذي مال إلى الخطية مثل آدم أبيه.

لأنك هكذا قد أحببتَ الحق، إذ أوضحت لي غوامض حكمتك ومستوراتها:

وفي ترجمة أخرى هي البيروتية: «هَا قَدْ سُرِرْتَ بِالْحَقِّ فِي الْبَاطِنِ، فَفِي السَّرِيرَةِ تُعَرِّفُنِي حِكْمَةً». لا نستطيع إدراك أعماق الله

لأنه من عرف فكر الرب أو من صار له مشيرًا؟ ولكن الله أعلن حبه لنا «ولكن اللهَ بَيَّنَ مَحَبَّتَهُ لنا، لأنَّهُ ونَحنُ بَعدُ خُطاةٌ ماتَ المَسيحُ لأجلِنا» (رومية ٥: ٨). إن حكمتك المستترة أنك تحبني وتقبل توبتي وتغفر لي وتحب خلاصي، لأنك تريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون. هذه هي حكمة الله وتدبيره.

تنضح علي بزوفك فأطهر، تغسلني فأبيضّ أكثر من الثلج:

الزوفا نبات شهير أستُخدِم قديمًا في العلاج، وأستُخدِم كعطر وكمرطِّب للفم، كما كان يُضاف إلى الخل لتخفيف الآلام، كما أستُخدِمت الزوفا في رشّ دم الفصح (خروج ١٢: ٢٢)، وفي مياه التطهير (عدد ١٩: ٦، ١٨)، وفي تطهير الأبرص (لاويين ١٤: ٦). ولكن التطهير من الخطية لا يتم إلّا بدم المسيح «بدونِ سفكِ دَمٍ لا تحصُلُ مَغفِرَةٌ!» (عبرانيين ٩: ٢٢)، وحتى الغفران الذي نحصل عليه الآن نحصل عليه من ذبيحة المسيح المستمرة، ومن رصيد الغفران الذي تركه لنا في سرّ التوبة والاعتراف «مَنْ غَفَرتُمْ خطاياهُ تُغفَرُ لهُ» (يوحنا ٢٠: ٢٣).

أمّا عبارة «أبيضّ أكثر من الثلج» فتعني الوصول إلى أقصى درجة من النقاوة، وتعبير الثلج يُستخدم بدلًا من الماء لأن الماء لا لون له وإنما الثلج هو الأشدّ نصاعة، مثلما قيل عن ثياب الرب في التجلي أنها صارت بيضاء كالثلج، لا يقدر قصّار على الأرض أن يبيّض مثلها (مرقس٩:٣).

والذي يبيّض ثيابنا هو دم المسيح، فقد قيل عن المُخلَّصين «وقَدْ غَسَّلوا ثيابَهُمْ وبَيَّضوا ثيابَهُمْ في دَمِ الخَروفِ» (رؤيا٧:١٤)، ولذلك فإننا نُلبِس الطفل المُعمَّد ثيابًا بيض وزنارًا أحمر لنذكر أنه صار أبيض مثل الثلج، لأنه بيّض ثيابه في دم المسيح «ودَمُ يَسوعَ المَسيحِ ابنِهِ يُطَهِّرُنا مِنْ كُلِّ خَطيَّةٍ» (يوحنا الأولى١:٧).

تُسمِعني سرورًا وفرحًا، فتبتهج عظامي المنسحقة:

تعبير العظام المنسحقة أو العظام التي سحقها الله (بحسب البيروتية: فتبتَهِجَ عِظامٌ [أنت] سحَقتَها) يقصد بذلك التذلّل الذي سمح به الله بسبب الخطية، أو الانسحاق الداخلي نتيجة الشعور بالتعدّي، فالخطية أبلت عظام داود وحطمت إنسانه الداخلي، مثلما تفعل بكل إنسان أخطأ.

أمّا السرور والفرح الذي يودّ داود النبي أن يسمعه فهو كلمات الصفح والغفران، هناك كلمات قالها الله فكان وقعها مفرحًا معزيًا كالندى على الأرض العطشانة، مثل التي سمعت: «إيمانُكِ قد خَلَّصَكِ، إِذهَبي بسَلامٍ» (لوقا٧: ٥٠)، والذي سمع «أُريدُ، فاطهُرْ!» (متى ٨: ٣)، أو «أنا الّذي أُكلِّمُكِ هو» (يوحنا٤: ٢٦)، أو «أيُّها الشّابُّ، لكَ أقولُ: قُمْ!» (لوقا٧: ١٤)، أو «لعازَرُ، هَلُمَّ خارِجًا!» (يوحنا١١: ٤٣). إن كثيرين كانت أعينهم متعلّقة بشفتي المسيح «قُلْ كلِمَةً فقط فيَبرأَ غُلامي» (متى٨:٨)، إنها كلمات ليست مبهجة فقط وإنما محيية وشافية. هكذا ننتظر بشوق شديد مترقّبين العبارة الأخيرة في التحليل الذي يصلّيه الكاهن على رؤوسنا "الله يحالللك" فإن كنوز العالم كله لا تساوي هذه العبارة في وقعها وفي نتائجها، ومن هنا تسمن العظام وتبتهج «طوبَى لرَجُلٍ لا يَحسِبُ لهُ الرَّبُّ خَطيَّةً، ولا في روحِهِ غِشٌّ» (مزمور٣٢: ٢).

اصرف وجهك عن خطاياي، وامحُ كل آثامي:

"اصرفه عن خطاياي"، وليس "لا تصرف هذا الوجه، وجه النور، عني"، فإني أطلب كثيرًا: «لا تستر وجهك عني»، «لا

تحجُبْ وجهَكَ عَنّي. لا تُخَيِّبْ بسُخطٍ عَبدَكَ. قد كُنتَ عَوْني فلا ترفُضني ولا تترُكني يا إلهَ خَلاصي» (مزمور ٢٧: ٩).

من جهة الخاطئ فهو يضع خطيته أمامه كل حين حتى لا ينسى أنه خطّاء، وأنه مُعرَّض للسقوط كل حين. وأمّا من جهة الله فليته يستر وجهه عن خطايانا فقط. كذلك يعني تعبير «اصرف وجهك» نسيان الأمر أو تركه تمامًا، مثل قولنا "صرفت نظر عن هذا الأمر" أي تركته كليًا.

وأمّا طلبة «أمحُ كل آثامي» فهي تختلف عن طلبة «تمحو إثمي» (آية ٢)، حيث يطلب المرنم أن يمحو الله الخطية المقصودة من المزمور أي الزنى، ولكنه هنا يطلب عن كل آثامه وليس عن واحد بعينه، داود يعرف أنه لم يخطئ في هذه فقط، ولذلك يطلب المغفرة عن كل الخطايا والآثام.

قلبًا نقيًا اخلُق فيّ يا الله، وروحًا مستقيمًا جدِّد في أحشائي:

إذا كان هذا القلب قد تلوّث واعتلّ ولم يعد ينفع فيه لا دعامات دوائية ولا علاجية ولا أدوية ولا القلب المفتوح، فلتخلق

فيّ واحدًا جديدًا، فلربما كان قد تقسّى. وأنت يا رب وعدتَ أن تهب قلبَ لحمٍ بدل قلب الحجر «وأُعطيهِمْ قَلبًا واحِدًا، وأجعَلُ في داخِلِكُمْ روحًا جديدًا، وأنزِعُ قَلبَ الحَجَرِ مِنْ لَحمِهِمْ وأُعطيهِمْ قَلبَ لَحمٍ» (حزقيال ١١:١٩).

والروح المستقيم يُقصَد به استقامة السيرة أو "القلب المستقيم". ويرد كثيرًا في الكتاب المقدس ما يشير الى طلب استقامة القلب، فقد وُصِف الملوك الصالحون بأنهم عملوا كل ما هو مستقيم في عيني الرب، حتى داود نفسه قيل عنه: «لأنَّ داوُدَ عَمِلَ ما هو مُستَقيمٌ في عَينَيِ الرَّبِّ ولَمْ يَحِدْ عن شَيءٍ مِمّا أوصاهُ بهِ كُلَّ أيّامِ حَياتِهِ، إلّا في قَضيَّةِ أوريّا الحِثّيِّ» (ملوك الأول ١٥: ٥). وهكذا كُتِب عن آسا: «وعَمِلَ آسا ما هو مُستَقيمٌ في عَينَيِ الرَّبِّ كداوُدَ أبيهِ» (ملوك الأول ١٥:١١).

هذه الآية نصليها طلبة كل يوم عند صلاة الساعة الثالثة، ونحن نتذكر حلول الروح القدس على التلاميذ في يوم الخمسين، ونضيف اليها:

لا تطرحني من قدام وجهك، وروحك القدوس لا تنزعه مني:

الطرح من قدام الوجه هو رفض المُتقدِّم حتى وهو ساجد، وكأنما العظيم قد "رفس" الشخص الساجد أو "رفضه"، أو تجاهله ورفض طلبه أو التماسه، أو رفض مقابلته أصلًا، وأن يمثل أمامه. داود نفسه والذي قبل الوساطة في أمر ابنه أبشالوم ليعود إلى أورشليم طلب ألّا يراه «فقالَ المَلِكُ: "لِيَنصَرِفْ إلَى بَيتِهِ ولا يَرَ وجهي". فانصَرَفَ أبشالومُ إلَى بَيتِهِ ولَمْ يَرَ وجهَ المَلِكِ» (صموئيل الثاني ١٤: ٢٤). هكذا يصلي داود "لا ترفضني عنك" «لا تحجُبْ وجهَكَ عَنِّي. لا تُخَيِّبْ بسُخطٍ عَبدَكَ. قد كُنتَ عَوْني فلا ترفُضني ولا تترُكني يا إلهَ خَلاصي» (مزمور ٢٧: ٩).

أمّا الروح فإنه يمكن أن يحزن «لا تحزنوا الروح»، ويمكن أن ينطفئ «لا تطفئوا الروح»، ويمكن أن نتجاهل تبكيته، ولكنه يظل بالداخل، لذا نرجو الله ألّا ينزعه منّا. لقد حدث مثل ذلك مع شمشون حين استهان بالموهبة والنذر: «وقالَتِ: "الفِلِسطينيّونَ علَيكَ يا شَمشونُ". فانتَبَهَ مِنْ نَوْمِهِ وقالَ: "أخرُجُ حَسَبَ كُلِّ مَرَّةٍ وأنتَفِضُ". ولَمْ يَعلَمْ أنَّ الرَّبَّ قد فارَقَهُ» (قضاة ١٦: ٢٠). كذلك عوقب شاول بمثل ذلك: «وذَهَبَ روحُ الرَّبِّ مِنْ عِندِ شاوُلَ، وبَغَتَهُ روحٌ رَديءٌ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ» (صموئيل الأول ١٦: ١٤).

امنحني بهجة خلاصك، وبروح رئاسي عضّدني:

الخلاص المجاني مبهج، والخلاص من الخطية كذلك، غير أن البعض يخلصون كما بنار، والبعض يتألمون وهم يجاهدون، يعانون وهم صائمون، يبكون ويتألمون كثيرًا عند التوبة، ولكن الخلاص مفرح. وإذا كان الإنسان يتغصّب ويعاني طول حياته فهناك خطأ ما في المنهج، لأن التغصُّب يلازم البداية فقط. ولذلك ففي بعض الترجمات يُقال «رُدَّ لي بَهجَةَ خَلاصِكَ»، وفي موضع آخر يقول: «أمّا أنا فعلَى رَحمَتِكَ توَكَّلتُ. يَبتَهِجُ قَلبي بخَلاصِكَ» (مزمور ١٣: ٥). إن أجمل ما يوجد في المسيحية هو الخلاص، نتغنّى به، ونرنم هذه الكلمة كثيرًا في ليتورجياتنا، إنها سرّ البهجة لنا في هذا العالم.

فأُعلِّم الأَثَمَة طرقك، والمنافقون إليك يرجعون:

عندما أتذوق ذلك أتشجّع وأتجه للآخرين قائلًا: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب!»، ولا شك أن داود النبي عندما جاز هذه الخبرة أصبح قادرًا على أن ينقلها لآخرين ممن كسرت الخطية قلوبهم، وباعدت فيما بينهم وبين الله، فتملّكهم اليأس، ولكن

التائب عاد وكأنه لم يخطئ أصلًا، أي صار بتولًا. وتعبير «أعلّم الأَثَمَة» يُقصَد به "أدلّهم على طريقك"، طريق الغفران والاحتواء ونسيان الخطية، وكم أنت محب يا الله! إن المرشدين الذين سمح الله لهم بالتألم من بعض السقطات صاروا ذوي شفقة على الذين سقطوا مثل القديس أغسطينوس والقديس موسى الأسود وغيرهما. ونقرأ في بستان الرهبان عن الأب الذي أوقع خاطئًا في اليأس ولم يعطه رجاءً، فطلب أب آخر من الله أن يجعل ذلك الشيخ يجرّب في شيخوخته ما لم يجرّبه في شبابه ليتعلم أن يترفّق بالخطاة.

نجني من الدماء يا الله إله خلاصي، فيبتهج لساني بعدلك، يا رب افتح شفتي، فيخبر فمي بتسبيحك:

رغم توبة داود النبي وفرحه بخلاص الرب، إلّا أنه من نتائج خطية داود أنه أورث نسله السيف والزنى «والآنَ لا يُفارِقُ السَّيفُ بَيتَكَ إلَى الأبدِ، لأنَّكَ احتَقَرتَني وأخَذتَ امرأةَ أوريّا الحِثّيِّ لتَكونَ لكَ امرأةً» (صموئيل الثاني ١٢: ١٠). وما فعله داود فعله أبشالوم وأمنون ابناه وغيرهم من الأحفاد، وكذلك استمرت الحروب والقتل، كما أن الابن المولود له كثمرة للخطية قد مات.

ولذلك يجب أن ننتبه إلى أن نتائج الخطية يمكن أن تُورَّث، حتى بعد تقديم التوبة! مثل نتائج إدمان الخمور والميسر والعادات الرديئة، والزنى والربا والقتل وغيرها. إن كثير من الخطايا لها عقوبات أرضية رغم التوبة عنها، وتعبير "دماء" لا يعني بالضرورة القتل وإنما مسئولية هلاك الناس، فإن الله عندما حذّر بأنه يطلب دم الرعية من الراعي المتهاون، لم يكن يقصد أن الرعية قد سفك دمها، وإنما الهلاك. وعندما نصلي هذا الجزء من المزمور، فإننا نقصد أن ننجو من مسئولية أيّ شخص قد يهلك بسببنا سواء من جهة العثرة أو الاهمال.

أمّا المقصود بـ«يبتهج لساني بعدلك» فهو أن يتهلّل لساني بالحديث عن مراحمك، لأن عدلك مملوء رحمة، وأن المرنم يجد فرحة في أن يخبر بعدلك: «ولِساني يَلهَجُ بعَدلِكَ. اليومَ كُلَّهُ بحَمدِكَ» (مزمور ٣٥: ٢٨)، وكذلك يقول في موضع آخر: «ذِكرَ كثرَةِ صَلاحِكَ يُبدونَ، وبعَدلِكَ يُرَنِّمونَ» (مزمور ١٤٥: ٧).

وتنفتح الشفتان عندما يفيض القلب بالشكر والفرح، والذي يعلّم يديّ القتال يعلم شفتيّ التسبيح، والذي يكشف عن العينين العجائب، هو هو الذي يبهج ويعلّم الصلاة والتسبيح. واللسان

سوف يخبر كيف أن الله بار، لأن تعبير "عدل" يعني "برّ" أيضًا (ذيكيئوسيني). ويشهد لساني لك أمام الجميع.

هذا يفعله الله في مواقف الشهادة له، مثلما كانَ يحدِث في أزمنة الاضطهاد حيث يعطي الكلمة والحكمة: «لأنَّكُمْ تُعطَوْنَ في تِلكَ السّاعَةِ ما تتكلَّمونَ بِهِ، لأنْ لَستُمْ أنتُمُ المُتَكلِّمينَ بل روحُ أبيكُمُ الّذي يتَكلَّمُ فيكُم» (متى ١٠: ١٩، ٢٠). ويُلاحظ أيضًا أن التعبير: «يا رب افتح شفتيّ» وكأن المرنم يقول لله: "لا أريد أن أفتح فاي أنا، ولكن ليكن منك أنت الذي تضع فيه ما يُقال".

لأنك لو آثرت الذبيحة، لكنتُ الآن أعطي،

ولكنك لا تُسَرُّ بالمُحرَقَات، فالذبيحة لله روح منسحق:

إن أعظم ما نقدمه لله هو القلب المنسحق، الله يريد رحمة لا ذبيحة «إنّي أُريدُ رَحمَةً لا ذَبيحَةً، ومَعرِفَةَ اللهِ أكثَرَ مِنْ مُحرَقاتٍ» (هوشع ٦:٦). كما صرّح الله أكثر من مرة أنه أُتخِم من كثرة الذبائح، ولكنه يريد القلب المنكسر الذي يعطي الله ذاته بالكامل عن طيب خاطر، هذه أعظم الذبائح، «لماذا لي كثرَةُ ذَبائحِكُمْ،

يقولُ الرَّبُّ. اتَّخَمتُ مِنْ مُحرَقاتِ كِباشٍ وشَحمِ مُسَمَّناتٍ، وبدَمِ عُجولٍ وخِرفانٍ وتُيوسٍ ما أُسَرُّ»(إشعياء ١:١١).

تصوّروا أن شخصًا يقف يصلي بعجرفة مثل الفريسي، أو شخصًا يضع مالًا في خزينة الله بكبرياء قلب، كما كانوا يفعلون في الخزانة في وجود السيد المسيح، أو شخصًا يخدم بغير اتضاع... الله يفرح بالمشاعر الوديعة التي نقدم بها، بغضِّ النظر عن التقدمة.

القلب المنكسر والمتواضع لا يرذله الله:

الله يحب المنسحقين، والإنسان المنسحق يستدرّ عطف الله وغفرانه، ودموع الإنسان تُحنِّن قلب الله جدًا، مهما كان خطأ الإنسان فإن انسحاقة يهدم حصون الخطية، وعليهم تنحدر المواهب من لدن الله، فالله يعطي نعمة للمتواضعين، حتى على مستوى البشر فإن اعتذار الشخص من القلب يجد قبولًا وراحة وغفرانًا. عندما تخطئ قف أمام الله بانكسار، وقل باتضاع إنك أخطأتَ، واطلب الغفران بقلب يشعر بالجُرم والأسف، مثلما فعل العشّار الذي قال في نفسه: مهما قلتُ ومهما بالغتُ في التعبيرات

فلن أستطيع التعبير عن شعوري بالأسف أمام الله، ومن ثَمّ فقد قال بانكسار وهو لا يجرؤ على النظر الى فوق: «اللهم ارحمني أنا الخاطئ»، ويُلاحظ أنه لم يقل "اللهم ارحمني فإني خاطئ"، بل "الخاطئ"، والفرق أنه ليس مجرد واحدًا من الخطاة وإنما الخاطئ الوحيد أو الكبير أو أول طابور الخطاة. وقد تسلمنا من العشار هذا المنهج، فتقف الكنيسة كلها متخذة صورته متضعة أمام الله، معتذرة ومنتظرة مراحمه. هناك أيضًا من انسحقوا قدام الله مثل حَنّة وأستير ويهوديت وأم اغسطينوس والمرأة الخاطئة... فنظر الله إلى تذلّلهم ورفع وجوههم.

أنعم يارب بمسرتك على صهيون (الكنيسة)، ولتُبنَ أسوار أورشليم:

ما أحوجنا **اليوم** لهذه الطلبة ونحن نحيا وسط ضيق واضطهاد! ما أحوج كنائسنا وقلوبنا لاستقرار سلام الله فيها! املأ بلادنا وبيوتنا بالمسرة، وانزع عنها الغم والنكد الذي طال جدًا. وأمّا أسوار أورشليم فهي الأجزاء التي وقعت بسبب التشكُّكات والإلحاد وبُعد الناس عن الله، إذًا الأسوار هي تعضيد الكنيسة

وتشديدها، وأحيانًا يُقصَد بصهيون القلب وأورشليم الإنسان كله، مثلما كانت صهيون هي الربوة المُقام الهيكل فوقها. فليفرح القلب، ولتصبح كل جدران أورشليم سليمة.. كل الاعضاء وكل الحواس، ولتكن أورشليم محروسة من الله...

حينئذ تُسَرّ بذبائح العدل قربانًا ومُحرَقاتٍ،

حينئذ يقرِّبون على مذابحك العجول. هلليلويا:

كان استمرار الذبائح وانتظامها في الخيمة أو الهيكل علامة رضى الله ودليل استقرار الأمة، ففي بعض الأوقات سمح الله بتوقف الذبيحة، كما نقرأ في سفر يهوديت إشارة هامة عن أن انقطاع الذبيحة يوجب غضب الله، فقد أبلغت يهوديت أليفانا رئيس جيوش الأشوريين أنه ما أن تفرغ المدينة من الحيوانات حتى تتوقف الذبيحة وبذلك يُعلَن غضب الله على الأُمّة، وقد انقطعت الذبائح مرارًا في أيام داود وشاول وأثناء السبي وأيام انطيوخس إبيفانيوس. وفي الترجمة البيروتية: «حِينَئِذٍ تُسَرُّ بِذَبَائِحِ الْبِرِّ، مُحْرَقَةٍ وَتَقْدِمَةٍ تَامَّةٍ»، ويُقصَد بها ذبائح التسبيح، هذه يُسَرُّ بها الله. هلليلويا.

هذا المزمور هو خبر مفرح: الله يغفر، ويقبل الخطاة الراجعين إليه، ويستسمن المحرقات.

من عمق الظلام الدامس أصرخ إليك فأَسمِعني صوتك الحاني..

من بين أوحال الخطية أرفع نحوك يديّ.. مثل طفل مُتمرّغ في وسخه مادًّا نحوك يديه المُلوّثتين بالآثام الكريهة، فمُدّ يديك إليّ... طهّر يديّ وانتشلني.

أسرع إليّ.. فهوذا الشيطان واقف بباب الجحيم مُكشِّرًا عن أنيابه مُتعطِّشًا لالتهامي، والإقفال عليّ هناك... هم يتربّصون بي أمّا أنت فتمهّد لي سبيل الخلاص.. «فيكونُ للذَّليلِ رَجاءٌ وتسُدُّ الخَطيَّةُ فاها» (أيوب ٥:١٦).

رجائي بك هو الصخرة التي أتمسّك بها عندما تلاطمني الأمواج، وهو بصيص الضوء الذي أهتدي إليك من خلاله. عندما أنظر إلى خطاياي أرتعب وُيصيبني الإحباط والكآبة، وعندما ألتجئ إليك لا تصرف وجهك عني، وفي الأوقات التي لا

أشعر فيها بذلك – منهمكًا في خطيتي – لا تتركني، بل انتزعني رغمًا عني، فإني لا أعرف ما هو مفيد لي. لقد قال أحد القديسين الذين اختبروا غفرانك: "إن كنتَ ترحم البار فليس هذا بعجيب، ولكن أن تُظهِر قوّتك فيّ أنا الخاطئ فهذا هو العجب!"

لي رجاء ألاّ تعاملني بحسب خطاياي بل بحسب رحمتك. تغاضَ عن خطاياي، أنا عارف أن الباب مفتوح ما دمتُ في الجسد، لذلك فأنا أسرع الآن فيما تبقّى من عمري، «أسعَى لَعَلّي أُدرِكُ الّذي لأجلِهِ أدرَكَني أيضًا المَسيحُ يَسوعُ» (فيلبي٣: ١٢).